التدين في العصر الحديث
الواقع، العقبات، والطموح

الدكتور حمزة عبد الله المليباري
كلية الدراسات الإسلامية والعربية. دبي

إن الحمد لله، و الصلاة و السلام على رسول الله أفضل الأنبياء والمرسلين، وعلى آله و صحبه و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .أما بعد :

فعلى الرغم من أننا قد ورثنا مقومات أقوى أمة تستطيع أن تقود العالم و الأمم في جميع المجالات: السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية؛ إذ كانت هذه الأمة مرشحة لسيادة الناس، تأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، كما جاء في القرآن الكريم ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر﴾ فإن هذه الأمة أصبحت أضعف الأمم تئن تحت وطأة الدول الكافرة وضغوطاتها اقتصاديا وعلميا وثقافيا وإعلاميا، ولا تستطيع أن تشكل قوة ضاغطة عليها !

وعلى الرغم من وجود وسائل النهضة والتعبئة والتوعية – من دول ومؤسسات وجامعات ومساجد وجمعيات ودعاة وكتاب ومفكرين وأموال وسائر الخيرات والنعم فوق الأرض وتحتها– فإن الأمة تعيش اليوم في أحلك ظروفها في التاريخ، وأسوء أنواع التخلف، ذلك التخلف الذي لا مبرر له، فهي لا تستطيع أن تعتمد على ذاتها في جميع مجالات الحياة، بل لا تستطيع أن تواجه تحدياتها المختلفة، بعقل وعلم وشجاعة وبصيرة ووحدة وخطط استراتيجية محكمة !!

وفي نهاية كل عام هجري نرى الأمة تأتي إلى مكة في موسم الحج لتتجمع بعرفات ومنى، متحدة على رفع شعار الحج وأركانه، بشكل منقطع النظير، وجميعهم يطوفون حول الكعبة بشعار الوحدة مع اختلاف لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم، ويتجهون جميعا إلى الله تعالى، ومع كل ذلك فإن الأمة تعيش بعد حياة ممزقة ومشتتة في كل مواقفها؛ لا يحترم بعضها بعضا بل يعيش بعضهم أعزاء

على بعض، وأذلاء على الكفار، وهم فرق مشتتة ومتصارعة حتى في مواجهة التحديات ومقاومة المصائب !!!

وعلى الرغم من كون الأمة تتميز بدستورها الذي تكفل الله تعالى بحفظه، وسنة نبيها ﷺ وسيرته الشاملة، التي تحمل في طياتها نصوصا نبوية تخبر عن تجارب ماضيها المجيد، كما تخبر عن مستقبلها وما سيحدث فيه من فتن مظلمة وتفرق وتمزق كتفرق اليهود والنصارى؛ فإن الأمة تفاجأ بما يحدث لها من فتن وفرقة وتخلف، ولا تملك خططا استراتيجية مدروسة من قبل المسؤولين لمواجهتها بأقل الخسائر البشرية والمادية، وإذا واجهتها كانت مغامرة تتسبب في خسائر فادحة وضحايا بشرية ثقيلة.

إذن تديُّن الأمة عموما إنما يكون بمظاهر الدين بلا جوهره، تحافظ على الصلوات دون تحقيق نتائجها التي يدل عليها قوله تعالى :﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾، وتصوم رمضان كل عام دون أن تحقق فوائده في التربية على خلق الصبر والتحكم في الشهوات والعواطف، والتضحية بها، وتقرأ القرآن وتحفظ السنة وتردد السيرة، بالرؤية العاطفية، بلا فهم وتفقه وعبر. وإن فهمت لا تقدر كيف تسقطها على الواقع، وتترجمها في الحياة. وقد يبرر التباطؤ في ذلك بتأويلات عدة ليس لها أي أساس من الصحة. بل قد يصبح تدينها في صورة تسيء إلى سمعة الإسلام عند أعدائها، حتى في حال كونها مظلومة من قبلهم.

ومعنى ذلك أن وسائل النهضة والتعبئة والتوعية التي تملكها الأمة غير مستخدمة كما استخدمها سلفها، كما جاء في بعض الآثار : "إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله" (تاريخ الطبري 3/197).

وعلى سبيل المثال فواجبات الجامعات والمدارس في تربية الأجيال لم تكن تؤدى بشكلها الصحيح. ويكون الأساتذة و الإداريون والطلبة كلهم مسؤولين عن ذلك على حد سواء .و إني أتساءل :

من يحمل منا رسالة التوجيه و التكوين و التربية و يؤديها كما ينبغي في مدرجات الجامعات وقاعاتها الدراسية وفصول المدارس ومجالس العلم في الجوامع والجمعيات؟

وهل نكون قدوة للطلبة في السلوك و الإبداع؟

ومن يعتني منا بجانب السلوك قبل العلم؟

وهل نقوم بتوعية أبنائنا الطلبة بأهمية السلوك و الإبداع؟
ومن يربط منا ما يُدرسه من المقررات بحسب ما يحتاج
إليه المجتمع إقليميا و دوليا؟
و من يهمه ما تعاني منه الأمة في عصر العولمة،ثم يقترح
تطوير المناهج و مفرداتها بهدف معالجة ذلك من الجذور؟

الواقع أن الجامعات إنما أنشئت لخدمة المجتمع؛ فيجب أن تلبي حاجاتها في جميع المجالات من خلال تطوير الدراسة ومناهجها،و عقد المؤتمرات والملتقيات،و أهم ما تحتاج إليه الأمة إعداد أجيال قادرة على تحمل المسؤولية في جانب تعليم المجتمع،و إصلاحهم من حيث السلوك والاقتصاد و الصحة و البيئة وتوعيتهم بأهمية الدراسات المستقبلية في جميع مجالات الحياة ،و دراسة كل جديد يظهر في خطط الأمم الأخرى فيما يخصهم و فيما يخص علاقاتهم الخارجية، والتخطيط الدقيق لمواجهة التحديات المحتملة في المستقبل حتى لا تفاجأ الأمة بها.

و كان ينبغي على الأساتذة أن يلتزموا بشعار الأنبياء(و أمرت أن أكون أول المسلمين) يعني في التنافس على ما يطور المجتمع و يخدم العباد و البلاد بدءا من مكارم الأخلاق.فان الإسلام يعني في حقيقته ثلاثة عناصر متكاملة و متناسقة يبنى بعضها على بعض هي :تربية المجتمع على مكارم الأخلاق و خدمة العباد والبلاد.

أما تربية المجتمع على مكارم الأخلاق فكما جاء عن النبي ﷺ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.إذن يجب أن يكون شعار كل مسؤول من المسلمين(أنا أول المسلمين) في أداء الواجبات و الأمانات و العهود وغيرها من مكارم الأخلاق .بل ينبغي أن يكون كل فرد من المسلمين لا سيما الدعاة و العلماء أوليهم في الامتثال بأوامر الله تعالى و الانتهاء عن النواهي ،يعني بذلك أن يكون قدوة لغيره من المسلمين في ذلك.و كما جاء في القرآن:(و في ذلك فليتنافس المتنافسون).لكن لسان حال الواقع أصبح ينبيء أن شعار معظمهم (أنا آخر المسلمين) في جميع المكارم.

و أما خدمة العباد و البلاد فإن مشكلتنا أن لا نربط الجامعات
و المؤسسات بالمجتمع إلا في إطار ضيق،و لا ننظر في برامج تعليمها ولا مفرداتها و مدى حاجتها إلى إصلاحها و تطويرها بحيث يخدم العباد والبلاد،لا

سيما في العلوم الشرعية،و أصبحت مناهجنا و مقرداتها وتدريسها بل الأساتذة و الطلاب على حد سواء بعيدة عما يجري في المجتمع.

و أخطر ما نعانيه اليوم هو الفرقة و البعد عن قول الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا) لأسباب تافهة أحيانا،مع وجود تنافس شديد بين أفراد الأمة في التدين الظاهري.

و ماذا عملنا في معالجة هذا التمزق و الفرقة أمام الأعداء عن طريق الجامعات و المدارس؟و هل قمنا بتطوير المناهج في العلوم الشرعية بحيث يعالج ذلك،مع إبقاء الحرية الكاملة و الاحترام في الآراء الشخصية و اختلافهم في الفهوم و الاستنباط؟

من منا يطبق على مستوى الدول و المجتمع و الأفراد قوله تعالى :

﴿و لا تستوي الحسنة و لا السيئة،ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم.و ما يلقاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (سورة فصلت الآية رقم 25،24).

و قوله تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله و هو أعلم بالمهتدين﴾، (سورة النحل الآية رقم 125).

و من منا يطبق على مستوى الدول و المجتمع و الأفراد في كل القضايا الدعوية و المصيرية الجوانب الاستراتيجية التي علمنا إياها النبي ﷺ من خلال سيرته التي قامت على تخطيط ودراسة وصبر و عقل وتدبر وحكمة في مجال الدعوة والهجرة و السلم و الغزوات وإرسال الوفود ومواجهة الفرقة وحفظ سمعة المجتمع الإسلامي أمام الأعداء ووحدته.

ومن منا يطبق في حياته قوله ﷺ ﴿خالق الناس بخلق حسن﴾

وأين القرآن في أعمالنا و حياتنا كأفراد و دولة ؟ إلا في الألسنة!

وأين سنة النبي ﷺ في حياتنا كأفراد و دولة ؟ إلا في المظاهر !!

وكان علينا أن نبحث عن ثغرات الأمة كلما تظهر فيهم الفرقة أو الفتن لنعمل سويا على سدها لتبقى الأمة على وحدتهم امتثالا لقوله تعالى:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ ومعنى هذا أنه يجب علينا أن نحافظ على هذه الوحدة المقدسة ولا يصدر منا شيء يسيء إليها من موقف سلبي،

ولا يكون رأينا إذا خالف آراء الآخرين سببا للفرقة والتحزب والصراع، بل يجب عليه أن يستعد للتضحية بنفسه ونفيسه ورأيه في سبيل المحافظة على اعتصام الأمة بحبل الله تعالى.

ومن أهم ما نراه اليوم من أسباب الفتن والتفريق سوء تعاملنا مع القرآن فهما وتحليلا وتطبيقا، وكذا السنة النبوية نسيء معها تصحيحا وتعليلا، وتفسيرا وتحليلا، في غياب المنهج السليم والمرجعية الأصيلة.لذا يجب أن يكون تدريسنا للحديث وعلومه في الجامعات لتؤسس في وجدان الأجيال منهجا صحيحا لتعاملهم في المستقبل مع نصوص نبوية تصحيحا وتضعيفا وتفسيرا وتطبيقا. أما أن ندرسها بدون ربطها بالمجتمع وما يحدث فيه من فوضى، فإن معظم الطلبة لا يعطون أهمية في استيعابهم لتلك العلوم. وبالتالي تصبح جهود الدولة في تربية الأجيال ضائعة ودون فائدة تذكر.

تعد تلك الملاحظات العابرة التي سقناها كقراءة لواقع تدين الأمة في العصر الحديث فما هي الآفاق المنتظرة ؟

بناء على المقدمة السابقة يمكن أن نحدد -على الأقل- عنصرين، يتعين الحديث عن الآفاق من خلالهما وهما :

أ- وجود مؤسسات علمية كثيرة لم يسبق المجتمع الإسلامي أن رآها من قبل.

ب- وجود حس إسلامي منتشر ومتوغل في النفوس بدون استثناء.

ولكن كيف يمكن تفعيلهما؟

تلك هي المشكلة التي نعانيها بخصوص الآفاق والطموحات !

أما المؤسسات فهل تنتج صناعة معرفية أم تعيد المعرفة في صورة مكررة؟

وهل نملك شروط انتاج المعرفة ؟

ما مدى توظيف المعرفة المنتجة ؟ وهل نملك شروط المعرفة لتوظيفها ؟

وما نوع المعارف التي نوظفها على المستويين: خدمة العباد و خدمة البلاد؟ و هل نملك شروط المنهج الصحيح للطرح المعرفي و الوظيفي؟

و أما فيما يخص وجود حس إسلامي منتشر فهل هذا الحس واع؟ ما مدى وعيه؟

هل يمكن أن يشكل مشروعا فعالا في الحياة الفكرية و العملية؟

كيف يتم إرشاده من طرف الجامعات و المؤسسات لكي تصنع منه قوتها؟

كيف تحول الدول الحس الشعبي الديني إلى قوة تخدم المجتمع الدولي؟

يجب علينا أن نتفرغ لدراسة هذه الأسئلة و تحليلها بشكل دقيق مع التجرد عن جميع أنواع العصبية و العاطفية.لكن المشكلة قائمة فيما يخص تنفيذ المقترح والتوصيات التي تتمخض عنها الدراسة إذا لم تتبناها الدولة !!

و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس.. (البقرة الآية 143).

"بدأ الإسلام غريبا،و سيعود كما بدأ غريبا،فطوبى للغرباء".(مسلم 130/1)

"لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله و هم كذلك" (مسلم 1523/3).